هُدبة بن الخشرم؛ وقفة فی حیاته وشعره

رمضان رضائی*

الملخص

کان هدبة بن الخشرم أصله من قبیلة عذرة، ولیس فی المصادر الکثیر عن حیاته، وشعره إلا ما کان بینه، وبین ابن عمه (زیادة) من المقاتلة التی أفضت إلی سجنه وقتله صبراً. وکان أول ما أثار الخصومة بینه، وبین ابن عمه زیادة بن زید، مراهنة بین حوط بن خشرم التی جرّت الحرب بین القبیلتین. ثم ما ارتجزه وأفحش به زیادة فی أخت هدبة ثم ردّ هدبة علیه بالتفحش بأخت زیادة. ثم تقاتلا فقتل هدبة زیادة فقبض علیه، وسجن ثم حکم بتسلیمه إلی أهل المقتول لیقتصوا منه فقتلوه أمام والی المدینة. وکان هدبة راویة، وشاعراً فصیحاً. إلا أن أسلوبه فی الشعر بدوی، وفی شعره شیء من الضعف، والغموض إلی جانب قَدْرٍ من الصناعة اللفظیة.وفی رجزه الذی ناقض فیه عبد الرحمن بن زید مُجون.ولمّا دخل هدبة السجن کَثُرَ شعره، وجاد. أما فنونه فهی: الهجاء، والحماسة، والغزل، والحکمة.

الکلمات‌الدلیلیة: هدبة بن الخشرم، الشعر الأموی، شعر السجن، الغزل، الفخر.

*. عضو هیأة التدریس بجامعة آزاد الإسلامیة فی تبریز.

تاریخ الوصول: ۱۳۸۸/۶/۱۸هـ. ش تاریخ القبول: ۱۳۸۸/۹/۲۹هـ. ش

المقدمة

عاشت مدن الحجاز فى العصر الأموى فى حالة من التحضر وخاصة، المدينة ومكة؛ فإن نجدا وبوادى الحجاز قلما سقط فيها من الحضارة شيء ذو بال، إذ استمرت القبائل فيهما، تعيش على الرّعى، وطلب الكلأ، فهى تعيش كأسلافها فى الجاهلية، معيشة مبتدية فيها غير قليل من الشّظف. وفى هذه البيئة ظلت المنافسات القبلية مستمرة فى مجالات عديدة قبل ظهور الإسلام، وبعده. وإن كان من المحقق أنّ ذلک لم يأخذ الشكل الحادّ الذى كان عليه القوم فى الجاهلية، بسبب نَهى الإسلام عن الأخذ بالثأر، وتحوّل حقّه من أيدى الدّولة، وكان ولاة بنى أمية فى نجد، وبوادى الحجاز يقظين، وكانوا إذا تفاقم الشرّ من بعض الأفراد زجّوا به فى السجون.

ومن المعروف أن الشعراء الذين اشتهروا فى أول الإسلام، وفى عهد بنى أمية، أشعر من السابقين، ولعل السبب يعود إلى استتباب السكينة، والهدوء بعد حروب الأمويين الأولى؛ هذا وإننا نرى فى قصائدهم مع متانة شعراء الجاهلية، سلاسة شعراء الإسلام، كشعر الأخطل، وشعر القطامى. ومن خصائص هؤلاء الشعراء، أنّ المتتبع لأشعارهم، لايجد فى مضامينهم شيئاً من بذاءة معاصريهم، ومجونهم: كجرير، والفرزدق. فكأنّ دينهم أرشدهم إلى العفاف، والحياد عن التهتک، والخلاعة، ونشير فى هذا المقال إلى هدبة بن الخشرم الذى نبغ فى تلک الحقبة.

أصله وأسرته

هو هدبة بن الخشرم، بن كرز بن أبى حية بن الكاهن ـ وهو سلمة ـ بن أسحم بن عامر بن ثعلبة بن عبد الله بن ذبيان بن الحارث بن سعد بن هذيم؛ وسعد بن هذيم شاعر من أسلم بن الحاف بن قضاعة؛ ويقال: بل هو سعد بن أسلم، وهذيم عبد لأبيه ربّاه؛ فقيل: سعد بن هذيم، يعنى سعداً هذا. (الأصفهانى، ١٩٩٤م، ج٢١: ١٦٦) وفى تاج العروس دعى جدّه «كريزا». (الزبيدى، لاتا، ج١: ٥١٣) وأورد ابن دريد هذه الإشارة فى الاشتقاق. (ابن دريد، ٢٠٠١م: ٤٢٠) ثم جعل ابن دريد، أبا الحيّه كاهناً ليس ابن الكاهن، وهذا خلاف

ما جاء فی الأغانی. (الأصفهانی، ۱۹۹۴م، ج۲۱: ۱۶۶) وأمّه حیّة بنت أبی بکر ابن أبی حیة، من أقاربه الأدنین. (فروخ، ۱۹۸۴م، ج۱: ۳۶۹)

وقیل إنه دُعی هدبة، وهو اسم طائر، وقیل إنه من هدبة الثوب، أی: خمله وطرّته. وکان اسم أبیه خشرم والخشرم جماعة النحل، وأمیرها، وکان من وجوه رهطه بن عامر. أمّا هدبة فکان معروفاً بالشجاعة، والنجدة، والجلادة، والصبر، والمروءة. (شیخو، ۱۹۹۹م: ۹۶) کان لهدبة ثلاثه أخوة، کلّهم شعراء: حَوط، وسَیحَان والواسع؛ وکانت أمهم «حیة» شاعرة أیضا. (الأصفهانی، ۱۹۹۴م، ج۲۱: ۱۶۶) وکان لهدبة أختان أیضا، تُدعی الأولی سلمی، وهی زوجة زیادة بن زید الذبیانی، من بنی رقامش، والأخری فاطمة التی تغزّل فیها زیادة، فکانت سبب الشرّ بین القبیلتین. (شیخو، ۱۹۹۹م: ۹۶)

وکان قوم هدبة یسکنون بادیة الحجاز، وقد انقسموا فریقین ذوی عصبیتین قویتین: بنی عامر بن عبدالله بن ذبیان ثم بنی رقامش بنی قُرّة بن خُنیس بن عبدالله بن ذبیان. وقد کانت بین الفریقین حروب، ومنارعات. (فروخ، ۱۹۸۴م، ج۱: ۳۶۹)

ویعتبر هدبة شاعرا فصیحا متقدما من بادیة الحجاز، وکان شاعراً راویة؛ کان یروی للحطیئة، والحطیئة یروی لکعب بن زهیر، وکعب بن زهیر یروی لأبیه زهیر، وکان جمیل راویة هدبة، وکثیّر راویة جمیل، فلذلک قیل: إن آخر فحل اجتمعت له الروایة إلی الشعر کثیّر. (الأصفهانی، ۱۹۹۴م، ج۲۱: ۱۶۶)

دینه

کان هدبة نصرانیا، ولعل اسم الکاهن بین أجداده یدلّ علی کهنوت النصاری، ولایراد به الساحر. وکان معنی الکاهن فی الجاهلیة یدلّ علی خادم الدین، ومقرّب الأقداس للإله. ویتضح من هذا أنّهم ما أرادوا بلفظة الکاهن السحرة، والمشعوذین فقط؛ بل أخذوها أیضاً بمعناها الخاص، أی: راعی الدّین القویم، وخادم الأسرار المقدسة، وإن لم ینصوا علیه. (شیخو، ۱۹۸۹م: ۲۰۱) وقد أشار صاحب «النصرانیّة وآدابها بین عرب الجاهلیة» إلی نصرانیّة قبیلة قضاعة التی کانت تُعدّ من أمهات القبائل، وإلی نصرانیّة

بطونها: كجرم بن ريّان، وسليح بن وبرة، وتيم اللات. وممن صرّحوا بدينها النصرانى: ابن واضح اليعقوبى فى تاريخه، حيث قال: «كانت قضاعة أوّل من قدم الشام من العرب... فدخلوا فى النصرانيّة فملّكهم ملك الروم على من ببلاد من العرب.» (المصدر نفسه: ١٣٧) وجاء فى بعض المراجع خلاف ما أثبته الأب لويس شيخو فى «النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية»، من نصرانيّة هدبة. جاء فى «اللآلئ» للبكرى: لما سجن هدبة فى دم زيادة، جعل القرشيون يكلّمون عبدالرحمن أخاه، فى أمر هدبة وأضعفوا له الدية حتى بلغت عشراً منهم: سعيد بن العاص، وعبدالله بن عمر، والحسين بن علىّ (ع)، وعمرو بن عثمان بن عفان. فلما أكثروا، امتنع عبدالرحمن، وقال هدبة: دعوه فوالله لايقبل عقلاً أبداً جزيتم خيراً. فأقام هدبة فى السجن، ست سنين حتى أدرك المسوّر بن زيادة، ومات عبدالرحمن طوال ذلک، وكان المسور، هو الذى ولّى قتل هدبة، وذكر المدائنى: أن المسوّر كان قد اختار العفو، وأخذ الدية حتى قالت له أمّه: والله لئن لم تقتل هدبة لأنكحنّه، فيكون قد قتل أباک، ثم ينكح أمک فتسب بذلک يد المسند، فلفته ذلک عن مذهبه، ومضى على الاثّار من هدبة، وقتل. (البكرى، ٢٠٠١م: ١٠٣٩) وجهود القرشين، وتحضيض المسوّر لأخذ الدية، دليل على إسلامية رهط هدبة، وزيادة. والدليل الآخر ما أورده صاحب الوافى بالوفيات حين أورد: وقال مصعب الزبيرى: كنا بالمدينة أهل البيوتات، إذا لم يكن عند أحدنا أخبار هدبة، وزيادة، وأشعارهما. وتعجب بها، وبعث هدبة إلى عائشة رضى الله عنها يقول لها: استغفرى لى، فقالت: إن قتلت استغفرت لک. (الصفدى، ٢٠٠١م، ١٩٦٧٥) وأمّا ما جاء فى خزانة الأدب للبغدادى فخير دليل على إسلامية هدبة:«ولم يزل سعيد يسأله حتى عرض عليه ستّ ديات، فأبى، وقد دفعه إليه حينئذٍ لقتله بأخيه، فاستأذن هدبة فى أن يصلى ركعتين، فأذن له، فصلاهما. وخفف، ثم التفت إلى من حضر، فقال: لولا أن يظن بى الجزع لأطلتهما، فقد كنت محتاجا إلى إطالتهما. ثم قال لأهله: إنه بلغنى أن القتيل يعقل ساعة بعد سقوط رأسه، فإن عقلت فنى قابضُ رجلى، وباسطها ثلاثاً. ففعل ذلک حين قتل. وقال قبل أن يقتل:

إن تقتلونى فى الحديد فإننى قتلت أخاكم مطلقاً لم يقيد

فقال عبدالرحمن أخو زیادة: والله لا قتلته إلا مطلقاً من وثاقه. فأطلق له، وتولی قتله ابنه المسوّر، دفع إلیه عمه السیف، وقال: قم فاقتل قاتل أبیک. فقام فضربه ضربتین قتله فیهما. وهدبة أول من سنّ رکعتین عند القتل. (البغدادی، ۲۰۰۱م: ۸۰۱۵) وقیل إنّ هدبة أول من أقید منه فی الإسلام. (المرزبانی، لاتا: ۵۶۱)

أخباره

وتمّ الاتفاق فی حدیث طویل، أن هدبة بن الخشرم قتل صهره (زوج أخته سلمی) زیادة بن زید بن مالک بن عامر فی أیام ولایة سعید بن العاص علی المدینة، ثم هرب، وقبض سعید بن العاص علی نفر من أهل هدبة فیهم: زفر بن کرز (عمّ هدبة) حتی جاء هدبة، وأسلم نفسه للسجن، فأفرج سعید بن العاص عن أهله. (فروخ، ۱۹۸۴م، ج۱: ۳۹۶) وجاء فی الأغانی فی هذه الروایة المشؤومة، أنّ حوطا بن خشرم أخا هدبة، راهن زیادة بن زید علی جملین من إبلهما، وکان مَطْلَقُهما من الغایة علی یوم، ولیلة. وذلک فی القیظ فتزودوا الماءَ فی الرَّوایا، والقِرب. وکانت أخت حوط، سلمی بنت خشرم تحت زیادة بن زید فمالت مع أخیها علی زوجها، فوهَّنت أوعیة زیادة ففنی ماؤه قبل ماء صاحبِه، ففی ذلک یقول زیادة:

قد جعلَتْ نفسی فی أدیمِ مُحرَّمِ الدِباغِ ذی هُزومِ
ثمَّ رَمَت فی عُرُض الدَّیْمومِ فی بارح من وَهَجِ السَّمُومِ
عند اطّلاع وَهْجةِ النُّجومِ

وقال زیادةُ أیضاً:

قد عَلمت سَلمةُ بالعَمِیسِ لیلة مَرمارٍ ومَرْمریسِ
أنَّ أبا المِسْوَرِ ذو شریسِ یشفی صُدَاع الأَبْلج الدِلْعیسِ

قال: فکان ذلک أوّل ما أثبت الضغائن بینهما. ثمّ إنّ هدبة، وزیادة اصطحبا، وهما مقبلان من الشام فی رکبٍ من قومهما. فکانا یتعاقبان السَّوق بالإبل، وکانت مع هدبة أخته فاطمة فنزل زیادة، وقال رجزاً أوّله: «عوجی علینا وأربعی یا فاطما»، فغضب

هدبة حين سمع زيادة يرتجز بأخته، فنزل، وارتجز بأخت زيادة، وكان اسمها أمّ الخازم، وقيل أمّ القاسم. فشتمه زيادةُ، وسبَّه هدبة، فصاح بهما القوم، ووعظوهما حتى أمسك كلّ واحد منهما على ما فى نفسه، وهدبة أشدُّهما حنقاً لأنّه رأى أنَّ زيادة رجز بأخته، وهى تسمع، وأخت زيادة غائبة لم تسمع رجزه فمضيا، ولم يتحاورا بكلمةٍ حتى رجعا إلى عشائرهما.

ثمَّ زاد حنقُ رهط هدبة إذ سمعوا أدْرع أخا زيادة يرجز بزفر عمّ هدبة، فلم يزالوا يترصّدونه حتى خلوا، وضربوه الحدّ ضرباً مبرّحاً، فراح بنو رقاش، وقد أضمروا الحرب. (شيخو، ۱۹۹۹م: ۹۷)

ولما لجّ الشرّ بين رهط هدبة، ورهط زيادة قال قوم لزيادة له: اهج هدبة، وقومه. فقال: إنى لم أبسط لسانى على قوم قطّ إلاَّ جهدوا على تَبلى (ويروى: قَتلى) من شدّة هجائى، ولكن انطلقوا لنضربه. فخرج زيادة فى رهط قومه فيهم إخوه نفَّاع يطلبون هدبة، فوجدوا الحيَّ خُلوفاً، ووجدوا هدبة، وأباه خشرماً، فضربوهما بسيوفهم فأصاب خشرماً شجّاتٌ فى رأسه، ووقع بذراع هدبة حزٌّ، وضرب نفَّاع برجله ريحانة أمّ هدبة، فقال قائلهم:

شَجَجنا خَشْرماً فى الرأس سبعاً | وخدَّعْنا هُديْبَةَ إذ هجانا
كذاک العبدُ إنّ العبد يوماً | إذا وَقَّفْتَهُ بالسيف لانا

فأجابه هدبة:

وإنَّ الدهرَ مؤتَنَفٌ طويلٌ | وشرُّ الخيلِ أقصرُها عنانا
وليس أخو الحروب بمن إذا ما | مرَتهُ الحربُ بعدَ العَصَب لانا

ثمَّ إنّ هدبة جمع رهطاً من قومه، وأصحابه فقصدوا لزيادة، وكانت ريحانة أمّ هدبة نهته عن الخروج فلم يَنْتَهِ، وأتوهم ليلاً فى وادٍ يقال له خَشُوب وزيادة، وأبياته على ماءٍ يدعى سَحْنة، فمضوا حتى بيَّتوا زيادة فلمّا غشوه، جعل يرتجز، ويقول، وفى رجزه إشارة إلى دين هدبة، وقومه:

من أينَ جاءَت عامِرُ القُبوحِ | لامرحباً بأمَّة المسيحِ

لن تقبلوا العَقل مع الفضوحِ ولن تُبيحوا الحىّ فى سَريحِ
حتى تَذوقوا خُدُبَ الصفيحِ

وجعل نفَّاع أخوه يرتجز، ويقول:

إنى إذا استخفى الجَبانُ بالخَدَرْ وكان بالكفّ شهابٌ كالشَّرَر
صَدْقُ القناة غير شعشاع العَذَرْ حَمَّالُ ما حُمَلتُ من خير وشرّ

وهى طويلة ثمَّ التقى هدبة، وزيادة فضرب هدبة زيادة، فأطنّ داغضةَ رجله أى عضلتها فاعتمد على رمح وجعل يُذبّب بسيفه عن نفسه حتى غشيَهُ هدبة فصرعه، وزعموا أنَّ زيادة جدع أنف هدبة فى تذبيبه عن نفسه وضرب القوم زيادة حتى ظنُّوا أنهم قد اجهروا عليه. ثمَّ أتوا منزل أَدرع أخى زيادة فصوَّتوا به فخرج عليهم فحاضرهم، ونجا منهم فقال هدبة:

وكانت شِفاء النفس ممَّا أصابهم غداتئذ لو نلتُ بالسيفِ أدْرَعا
وأقسمُ لو أدركتُهُ لَكَسوتُهُ حُساماً إذا ما خالطَ العظمَ أمْرعا

ثمَّ رجع إلى زيادة فوجدهُ صريعاً بين النساء، فضرب عاتقهُ بالسيف حتى خرجت الرَئة من بين كتفيه. فانصرف إلى أهلهِ فأخبرهم، وشبَّت الحرب بين الحَّيين، ونأى كلّ واحد منهما عن صاحبِه. (شيخو، ١٩٩٩م: ٩٩)

شاعريته

هدبة بن خشرمٍ شاعرٌ فى أسرة من الشعراء؛ كان أبوه، وأمّه، وإخوته الثلاثة، وابن عمّه عبد الرحمن شعراء. وهو شاعر مُطيل له قصيد، ورَجز، وهو يرتجل بيُسرٍ. وأسلوبه بدوى، وفى شعره شيء من الضعف، والغموض إلى جانب قَدْرٍ من الصناعة اللفظية. وفى رجزه الذى ناقض فيه عبد الرحمن بن زيد مُجون. ولما دخل هدبة السجن كَثُرَ شعره، وأجاد. أما فنونه فهى: الهجاء، والحماسة، والغزل، والحكمة. (فروخ، ١٩٨٤م، ج١: ٣٩٧)

وقد أفادنا ابن النديم فى الفهرست أنَّ السكَّرى «عمل أشعار جماعة من الفحول» ذكر من جملتهم «هدبة بن الخشرم» وصهره «زيادة بن زيد»؛ ولابُدَّ أن يكون ديوانهما

مفقوداً، وممَّا روى عن مروان بن أبى حفصة، وعن حمَّاد الراوية قولهما. (الأصفهانى، ١٩٩٤م، ج٢١: ١٧٦) وكان هدبة أشعر الناس منذ دخل السجن إلى أن أقيد، وفى قوله هذا شاهد على ما قيل بأنَّ أشعر الشعر ما أنشده صاحبه متجرداً عن الغايات مندفعاً إليه بعواطف غريزته.

كان هدبة شاعر القبيلة كما كان الأمر فى البادية. إن المقصود (بشاعر القبيلة) هو الشاعر الذى عاش فى العصور الجاهلية فى تبعية كلية لوسطه الاجتماعى. إن هذا الشاعر انبثاق عن المجموع الذى ولد فيه، وعاش، ونشط. فإن كلّ جهد للانفلات من قبضته عبث، حتى أن الصعلوک أو (الشاعر اللص) بإعلانه حقده على رهطه يشهد بذلک على متانة الروابط التى قطعها. وكان الشاعر القبيلة يجسّد رهطه أكثر من سواه، فثمة ألوف من الروابط تشده إليه حتى فى المواضع التى يبدو فيها منفصلاً عنه، وكان يجسّد أيضاً أكثر من غيره تناقضات المجتمع البدوى السائدة فيه عبادة (الأنا)، ونزعة الاستقلال الفردى اللتين تتعارضان، وعوامل اندماج الفرد فى المجموع، وينتهى النزاع عند الشاعر بانتصار المجموع، ومهما تكن المكانة التى يحتلها الشاعر فى قبيلته فهو يُسهم بالتظاهرات الأساسية فى حياة الجماعة، فهو يشارک فى الغزوات، والمعارک كافة. (بلاشير، ١٩٩٨م: ٣٧٣) وهذا ما أجرى عند قتل زيادة، وأصبح شعره فى ذلک الوقت يصور النزاع القبلى.

ولم يكن الشاعر القديم لسان حال القبيلة، وحامل لوائها فحسب، بل كان يعيش دوره مهولاً هذا الدور بأحقاده الشخصية، تلک الأحقاد التى تتلاقى أحياناً، وأحقاد قبيلته؛ فهو ينشد الشعر بحماسة، أو يندفع مسعوراً فى إنشاده، لأن مصير القبيلة مصيره، وليس (للأنا) من حدود إلا حدود أسرته أو المجموع الذى ينتمى إليه، ومن هنا كثر عنده الاندفاع، أو الانتقاد، أو الحقد. ولنبدأ بالأعداد: إن الجمهور يرقب شاعره، ويحرضه على قول الشعر. فالشعراء لايقلون حماسة فى الهجوم على الخصوم أو الرد عليهم، وهما أمران يقتضيان أحياناً حياة بكاملها يتبادلان فيها السخرية اللاذعة، والسباب، واللعنات. (المصدر نفسه: ٣٧٤) وهذه الأبيات خير دليل على ما ذكرناه فى تدخل العصبية القبلية،

وكونه مصدرا للفخر:

إنّى من قُضَاعَةَ مَنْ يَكِدْهَا أكِدْهُ وَهْىَ مِنِّى فى أمَانِ

ليس يريد بهذا الكلام نسبة نفسه إلى قُضَاعَةَ فقط، بل يريد اختصاصه بهم، وتعصّبه لهم. وهذا كما يقال: أنَا من فلانٍ، وإلى فلانٍ، أى ابتدائى منه، وانتهائى إليه، فيقول: إنِّى مُنتَمٍ إلى قضاعة أهوى هَوَاها، وضلعى معها، فمن عاداها أو نابذها عاديتُه ونابذتُه، وهى آمنةٌ من مكروهى وأذاى، إذ كنت أنعطّف عليها فيما ينوبها، وأغتفر زلاّتها فيما يتفق منها. وهذا الكلام فى التنبيه فى الاختصاص، والإبانة عن الطاعة والإخلاص، من أبلغ كلام وأكرم إبناس. ألا ترى أنه فصَّل ما أجمل، وفسَّر ما أبهم بقوله «من يَكِدْهَا أكِدْهُ، وهى مِنِّى فى أمَان؟» وهذا صفة جوارح الإنسان مع جملته وأبعاضه مع كلِّه، بدلالة إنّه يدافع من يريد إثابة أحدها، ثم هى آمنة من جنايته عليها، أو على شىء منها. (المرزوقى، ١٩٩١م: ٤٧٢)

ولَسْتُ بشاعِرِ السَّفْسَافِ فيهم ولَكِنْ مِدْرَهُ الحَرْبِ العَوَانِ

يقول: ليس محلِّى منهم، وفيهم محلِّ شاعر يُسَفسِفُ القريضَ، ثم يقضه دون غايته باليد واللِّسان.

ساهجو من هجاهم من سواهم أعرض منهم عمن هجانى

من تعرض لهم بمكروه أو ذكرهم بسوء فإنى أدافعه عنهم، وأعارضه دونهم، وأقاتله عن تناوله منهم ومن تعرّض لى منهم فإنّى أعرض عنه و أصفح عن غيّه فلا أؤاخذه به صيانةً لهم، ومحافظة على ما يجمعنى وإياهم. (المصدر نفسه: ٤٧٤)

غزله العذرى

ففى الشعر الجاهلى كانت الطبيعة بكل مظاهرها: الصحراء برمالها، ونباتها، وحيوانها، تعانق عناصر الطبيعة الأخرى كالشمس، والقمر، والرياح، والأمطار. فتشكل مورد الشعراء الأساسى الذى يستمدون منه صورهم، وينمّون خيالهم، ويصقلون إحساسهم الجمالى ويرتقون به فيبدعون أجمل القصائد.

واستمر الشعراء فى العصر الأموى ينهلون من الطبيعة، بل إن الشعراء الأمويين ربطوا خيالهم بخيال شعراء العصر الجاهلى، ورأوا بأعينهم كل ما وقعت عليه أخيلتهم، وتصوراتهم من مشبهات بسيطة تصور حياتهم فى الصحراء العربية، وحاول هؤلاء جميعا أن يربطوا كل مظاهر الجمال فى الطبيعة بتصورهم للمرأة، فاصطفوا أجمل مشاهد الطبيعة، وقرنوها بجمال محبوباتهم، فاختاروا من الطبيعة الرياض المزهرة، وخصّوا من الأزهار الأقحوان، والقرنفل فى صفة الأسنان، وطيب الفم. ومن السماء اختاروا: الغيوم، والأمطار لصفة مشيتها وخصوبتها، وضمّوا إلى ذلك النجوم والأقمار فى وصف جمال وجهها ولونها، ومن الصحراء اصطفوا رمالها، وكثبانها لوصف بعض أجزاء من جسمها، وتخيّروا من الحيوانات أجملها: كالغزال، والبقر الوحشى فى صفة الرشاقة، والقد، والعيون، والحنان.

ويقول هدبة بن الخشرم مصوراً مواكب النساء الجميلات بأعناقهن التى استعرنها من الظباء الرشيقة، وأعينهن التى تشبه أعين البقر الوحشى فى سعتها، ولونها، وثقل أردافهن بالسحاب المثقل بما يحمل من خير:

فلم تر عينى مثل سرب رأيته ... خرجن علينا من زقاق ابن واقف
تضمخن فى الجادى حتى كأنما الأ ... نوف إذا استعرضتهن رواعف
خرجن بأعناق الظباء وأعين الـ ... جآذر وارتجت لهن السوالف
فلو أن شيئاً صاد شيئاً بطرفه ... لصدن ظباء فوقهن المطارف

(الأصفهانى، ١٩٩٤م، ج٢١: ١٧٤)

شعره فى أيام حبسه

لم يزل هدبة بسبب قتل صهره محبوساً حتى شخص «عبدالرحمن» أخو «زيادة» إلى «معاوية»، وأرسل «هدبة» إلى معاوية، فلما صار الفريقان بين يديه، قال عبد الرحمن: «يا أمير المؤمنين، أشكو إليک مظلمتى، وقتل أخى، وترويع نسوتى.» فقال معاوية: يا هدبة قل. فقال: إن هذا رجل سجّاعة، فإن شئت أن أقصّ عليک قصتنا كلاماً

أو شعراً فعلت، قال: لا بل شعراً، فقال هدبة مرتجلاً:

ألا یا لَقَوْمِی لِلنّوائِبِ والدهرِ ... وللمرء یُردی نفسه وهو لا یدری
وللأرض کم من صالحٍ قد تأکَّمت ... علیه فَوَارَتْهُ بِلَمَّاعةٍ قَفْرِ...
فیا قلبُ، لم یألف کإلْفِکَ آلِفٌ ... ویا حبّها لم یُغرِ شیءٌ کما تُغْری...
فلا تتّقی ذا هَیبَةٍ لِجَلالِهِ ... ولا ذا ضیاعٍ هنَّ یترکن للفقرِ

(فروخ، ۱۹۸۴م، ج۱: ۳۹۸)

بدأ هدبة قصیدته بمطلع حکمی، وکأنی به یقول: لا أمان للدهر وللمصائب، وقد یلقی المرء نفسه فی التهلکة وهو لا یدری، وکم من رجال صالحین دفنوا فوارتهم الأرض وکأنه لیس تحتها شیء. ثم انتقل إلی التعبیر الوجدانی عما یکنّه قلبه من حب لمحبوبة هی الأکثر إغراء. وعاد للحکمة، والنصح، وبعدها أخذ یمرض قضیته، قائلاً: اعتدی علینا، فرددنا فکان أن أصبنا رجلاً کان قد انتهی أجله المسطور. وأنت القاضی، والحکم فإن حکمت بالدّیة دفعناها مهما بلغت، وإن حکمت یقتلی صبراً، قبلت أیضاً هذا الحکم. استنتج معاویة من أقوال هدبة، اعترافه بالقتل، ویبدو أنه رقّ لحاله، وبما أن عبدالرحمن رفض الدیّة، وأراد معاویة تأخیر تنفیذ قتل هدبة، قال معاویة: هل لزیادة ولد؟ قال: نعم، غلام صغیر. فأمر معاویة بحبس هدبة إلی أن یحتلم الغلام، فإن شاء قتل، وإن شاء أخذ العقل. (التبریزی، لاتا،ج۲: ۱۶) وقد أراد معاویة من وراء ذلک، المماطلة، عسی مع مرور الزمن، أن تهدأ أهل القتیل، ویقبلون بالدیة، وبذلک ینقذ هدبة من الهلاک.

مکث هدبة فی السجن عند سعید بن العاص فی المدینة ما شاء الله أن یمکث حتی أدرک «المسوّر» (ابن زیادة) وذلک ثلاث سنین وقیل خمس سنین وقیل ست سنین، وجعل عبدالرحمن یقدم المدینة فیکلمه القرشیون وغیرهم، وکان أهل المدینة قد رفّوا لهدبة لوفائه وشعره، وإنه أول مصبور رأوه فی المدینة بعد زمن النبی (ص) وأضعفوا له الدیة حتی بلغت عشراً، وجعل یردد علیهم الاباء، فلما احتلم «المسور» وتقرر إخراج «هدبة» للقود، بعث إلیه أخوانه بکفن، وحنوط، فقال:

ألا عَلاّنِی قبلَ نَوحِ النَّوائحِ ... وقبلَ اطّلاعِ النَّفْسِ بینَ الْجَوانحِ

وقبلَ غدٍ يا لهفَ نفسى على غدِ إذا راحَ أصحابى ولَسْتُ برائحِ
إذا راحَ أصحابى نفيضُ عيونهُم وغُودِرْتُ فى لحدٍ علىَّ صَفَائِحِى
يقولونَ هلْ أصلحتم لأخيكُمُ وما القبرُ فى الأرضِ الفضاءِ بصالحِ

(ابن قتيبة، ١٩٨٠م، ج٢: ٥٨٣)

ولما كان فى الليلة التى قتل فى صباحها أرسل إلى أمراته، وكان يحبها، فأتته فى اللباس والطيب، فصارت إلى رجل قد طال حبسه، وأنتنت فى الحديد رائحته، فحادثها، وبكى وبكت، ثم راودها عن نفسها، وطاوعته، فلما علاها سمعت فعقعة الحديد فاضطريت تحته، فتنحى عنها وأنشأ يقول:

وأَذْنَيتَنى حتى إذا ما جعلتنى لَدَى الْخَصْرِ أو أدنَى اسْتَقَلَّكِ راجفُ
فإن شئتُ والله انتهيتُ وإنّنى لئلا تَرَيْنِى آخَرَ الدَّهرِ خائفُ

(الأصفهانى، ١٩٩٤م، ج٢١: ١٧٤)

ومن جيّد شعره قصيدته البائية التى قالها فى الحبس:

طربت وأنت أحيانا طروبُ وكيف وقد تعلّاك المشيبُ...
عسى الكربُ الذى أمسيتُ فيه يكونُ وراءَهُ فرجٌ قريبُ
فيأمنُ خائفُ ويفكُ عانٍ ويأتى أهلَه النّائِى الغريبُ

(شيخو، ١٩٩٩م: ١١١-١٠٩)

وهذا الكلام تعوّدنا سماعه من الشعراء المساجين، يعيشون فى كرب ويأملون الفرج، إلا أنه فى البيت الثالث يعبر عما يخالج نفسه من اضطراب، وخوف على مصيره، ويرجو العودة إلى أهله.

وينسب إليه قوله فى السجن:

ألا ليتَ الرياحَ مسخراتٍ بحاجتنا تباكرُ أو تؤوبُ
فتخبرُنا الشّمالُ إذا أتَتْنَا وتخبرُ أهلَنا عنا الجنوبُ

يصوّر هدبة فى سجن المدينة قساوة العيش فيه، إذ المنيّة متوقعه، ويشتاق لأهله، متمنياً أن تكون الرياح الواسطة بينه وبينهم، تذهب إلى أهله تخبرهم عنه، وتأتى

بأخبارهم إليه.

ومن قوله فی السجن أیضاً:

إنّی عَدَانِی أن أزورَکِ مُحْکَمٌ — متی ما أحرُکْ فیه ساقیَ یصخَبِ
حدیدٌ ومرصوصٌ بِشَیْدٍ وجَندلِ — له شُرُفاتٌ مرقبٌ فوقَ مَرْقَبِ
یُخَبِّرُنی تُرَّاعُهُ بین حَلقَةٍ — أزُومٍ، إذا عضّتْ وکَبْلٍ مُضَبّبِ

تذکر هدبة حبیبته، وهو فی غیاهب السجن، وتمنی لقاءها، ولکن أنّی له ذلک وهو مسجون مربوط بالسلاسل، والقیود الثقیلة المشدودة علی ساقه، والتی ثبت طرفها الآخر یجدران السجن، وهناک أبواب السجن الموصدة، والسجّان خفیر أمام الباب، والسجن یقع فی مکان مرتفع والحرس علی شرفاته.

یبدو أن تلک الحبیبة علی قدر کبیر من الجمال لأنه قال فیها:

وَجدْتُ بها ما لم تَجِدْ إمٌّ واحد — ولا وَجْدُ حُبَّی بابنِ أمِّ کِلابِ
رأتهُ طویلَ السّاعدینَ شَمَرْدَلاَ — کما تَشْتَهِی من قوةٍ وشبابِ

(الأصفهانی، ١٩٩٤م، ج٢١: ١٧٧)

واتفق صاحب الأغانی، وأخبار النساء علی أن لهذین البیتین قصة، وهی أن هدبة لما أخرج من السجن لیقاد منه فمر بـ«حبّی» وهو ینشد الأشعار. فقالت له: ما رأیت أقسی قلباً منک، ولا أنکر أن یصبر الرجال علی الموت، ولکن کیف تصبر عن هذه؟ یعنی امرأته الجمیلة التی کانت خلفه تولول. فوقف وأنشد البیتین السابقین فولت «حبّی» هاربة.

وفی روایة أخری: مرّ «هدبة» علی «حبّی» فی طریقه إلی القود، فقالت: فی سبیل الله شبابک، وجلدک، وشعرک، وکرمک، فقال هدبة:

تَعَجَّبُ حُبَّی من أسیر مُکَبَّلٍ — صَلیبَ العَصا باقٍ علی الرَّسَفَّانِ
فلا تَعْجَبی مِنی حَلیلَةَ مالکٍ — کذلک یأتی الدّهْرُ بالحدَثانِ

(المصدر نفسه: ١٧٥)

إننا نحس، ونحن نقرأ هذا الشعر، بالقوة، والفخر، والإباء عند «هدبة»، کذلک برباطة

الجأش فى أحلك الأوقات، وأصعب الظروف، وكدنى به، لم يكن بحاجة إلى من يصبره ويهدى، من روعه، وفى مكان آخر يقول:

لعمرى لَئِن أمْسيْتُ فى السَّجنِ عانياً ... علىَّ رقيبٌ حارسٌ متقوِّفُ
إذا سَبتى أغْضَيتُ بعدَ حميّةٍ ... وقد يَصْبِرُ المرءُ الكريمُ فيعرفُ

وهذا دليل على ما يقاسيه «هدبة» من آلام نفسية، وشعور بالمهانة، والذل، فى السجن، إنه مرغم على كبت أحاسيسه، ومشاعره لأنه عاجز عن الثأر لكرامته. وهو الذى لجأ إلى قتل ابن عمه، لما داس على كرامته، مما أدى إلى سجنه، والآن ممن يثأر؟ وكيف؟ ليس أمامه إلا الاستسلام، والخنوع.

تحدث الشعراء المساجين، وأسهبوا عن السجن، وآلامه، ولكن أحداً منهم لم يذكر عبارة: إذا سبّنى أغضيت... لذلك كان لهدبة شرف السبق، فهل يعنى ذلك أنه كان الأكثر عزة وإباء؟

رفض عبد الرحمن أخو زيادة (القتيل)، كل وساطة أو دية، وبلغ ابن القتيل (المسور) الحلم، وجاء وقت القود، ولامناص فاتجه هدبة إلى الله قائلاً:

إذَا العَرشِ إنّى مسلمٌ بكَ عائذٌ ... منَ النّارِ ذو بثٌّ إليكَ فقيرُ
بغيضٌ إلىِّ الظلمُ ما لم أصَب بِهِ ... من الظُّلمِ مَشْغُوفُ الفؤادِ تَفِيْرُ
وإنّى وإن قالوا أميرٌ وتابعٌ ... وحُرّاسُ أبوابٍ لهنّ صريرُ
لأعلمُ أنَّ الامرَ أمرُكَ إنْ تَدِنْ ... فَرَبِّ، وإن تَغْفِرْ فأنت غَفُورُ

(المرزوقى، ١٩٩١: ٤٧٦)

ولما خرج به صاحب الشرطة لقيه عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، فقال له أنشدنى يا هدبة، فقال: أ على هذه الحال. فقال: نعم، فأنشده:

ولستُ بِمفراحٍ إذا الدّهْرُ سَرّنِى ... ولا جازعٍ من صرفهِ المتقلبِ
ولا أتمنى الشرَّ، والشرُّ تاركى، ... ولكن متى أَحْمَل على الشرِّ أركبِ

ويدلّ هذا على تمالك الأعصاب، ورباطة الجأش، إنسان يقاد إلى القتل، فى اللحظات الأخيرة التى يودع فيها الحياة، ينطق بالحكمة الموحية بالقوة، والفخر، وليس

هذا فحسب، فقد ورد أنه فى طريقه ليقتل، انقطع قبال نعله، فجلس يصلحه، فقيل له، أو تصلحه وأنت على ما أنت، فقال:

أشدُّ قِبَالَ نَعلى أن يَرانى عدوِّى للحوادث مُسْتَكينا

والتفت «هدبة» فإذا بأبويه يتوقعان الشكل، فهما بسوء حال، فأقبل عليهما وقال:

أبلِيَانِى اليومَ صبرا منكما إنّ حزناً إن بدا بادىُ شَرْ
لا أرانى اليومَ إلا مَيّتا إنَّ بعدَ الموتِ دارَ المستَقَرْ
أصبرا اليومَ فإنِي صابرٌ كل حىٍّ لقَضاءٍ وقَدَرْ

(الأصفهانى، ١٩٩٤م، ج٢١: ١٧٦)

وقد ورد أن مروان ابن أبى حفصة قال: كان هدبة أشعر الناس منذ يوم دخل السجن إلى أن أقيد منه.

وورد فى كتاب الحيوان: «وكان هدبة من شياطين عذرة،... وقليلاً ما ترى مثل شعرة عند مثل حاله، وإن امرأ مجتمع القلب، صحيح الفكر... عضب اللّسان فى مثل هذه الحال، لناهيک به مطلقاً غير موثق، وادعاً غير خائف، ونعوذ بالله من امتحان الأخيار... وما قرأت فى الشعر كشعر «عبد يغوث»، وطرفة، وهدبة هذا فإن شعرهم فى الخوف لايقصر عن شعرهم فى الأمن، وهذا قليل جداً.

النتيجة

١ـ كان هدبة معروفاً بالشجاعة، والنجدة، والجلادة، والصبر، والمروءة.

٢ـ كان هدبة شاعراً راوية، كان يروى للحطيئة، والحطيئة يروى لكعب بن زهير، وكعب بن زهير يروى لأبيه زهير، وكان جميل راوية هدبة، وكثيّر راوية جميل.

٣ـ هدبة بن خشرم شاعرٌ فصيح متقدم من بادية الحجاز فى أسرة من الشعراء: كان أبوه، وأمّه، وإخوته الثلاثة وابن عمّه عبد الرحمن شعراء. وهو شاعر مطيل له قصيد ورجز، وهو يرتجل بيُسر. وأسلوبه بدوى، وفى شعره شىء من الضعف، والغموض إلى جانب قدر من الصناعة الفظية. وفى رجزه الذى ناقض فيه عبدالرحمن بن زيد مجون.

ولمّا دخل هدبة السجن كَثُرَ شعره، وجاد. أما فنونه فهى الهجاء، والحماسة، والغزل، والحكمة.

٤ـ صار بعض أبيات هدبة مثلا حتى ضرب به المثل:

ولست بمفراح إذا الدَّهر سرَّنى ولا جازع من صرفه المتقلِّبِ
ولا أتبغَّى الشَّرَّ والشَّرُّ تاركى ولكن متى أحمل على الشَّرِّ أركبِ

٥ـ هدبة أول من سن ركعتين عند القتل. وهو أول من أقيد فى الإسلام.

المصادر والمراجع

ابن دريد الأزدى، أبوبكر. ٢٠٠١م. *الاشتقاق*. الموسوعة الشعرية. أبوظبى: المجمع الثقافى.

ابن قتيبه، عبدالله. ١٩٨٠م. *الشعر والشعراء*. الطبعة الرابعة. بيروت: دار الثقافة.

أبوعلى، المرزوقى. ١٩٩١م. *شرح ديوان الحماسة*. الطبعة الأولى. بيروت: دارالجيل.

الأصفهانى، أبوالفرج. ١٩٩٤م. *الأغانى*. الطبعة الأولى. بيروت: دار إحياء التراث العربى.

البغدادى، عبدالقادر. ٢٠٠١م. *خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب*. الموسوعة الشعرية. أبوظبى: المجمع الثقافى.

البكرى الأندلسى، أبوعبيد. ٢٠٠١م. *اللآلى فى شرح أمالى القالى*. الموسوعة الشعرية. أبوظبى: المجمع الثقافى.

بلاشير، رژى. ١٩٩٨م. *تاريخ الأدب العربى*. مترجم: إبراهيم الكيلانى. دمشق: دارالفكر.

التبريزى، المعروف بالخطيب. لاتا. *شرح ديوان الحماسة لأبى تمام*. بيروت: عالم الكتب.

شيخو، لويس. ١٩٩٩م. *شعراء النصرانية بعد الإسلام*. الطبعةالخامسة. بيروت: دار المشرق.

ـــــــــــ . ١٩٨٩م. *النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية*. الطبعة الثانية. بيروت: دار المشرق.

الصفدى، صلاح الدين. ٢٠٠١م. *الوافى بالوفيات*. الموسوعة الشعرية. الطبعة الثانية. أبوظبى: المجمع الثقافى.

فروخ، عمر. ١٩٨٤م. *تاريخ الأدب العربى*. الطبعة الخامسة. بيروت: دار العلم للملايين.

المرزبانى، أبو عبيد الله محمد بن عمران. لاتا. *الموشح*. تحقيق: فاروق سليم. بيروت: دار صادر.

تجور، فاطمة. ١٩٩٩م. *المرأة فى الشعر الأموى*. الطبعة الأولى. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.